في حضرة ناسا.. لقاء مع عالم الفضاء المصري عصام حجي

شهدت مدينة دبي في مطلع شهر ديسمبر الماضي حدثًا معرفيًا ضخمًا عُرف بـ "قمة المعرفة" بحضور وتحت رعاية وإشراف الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم حاكم إمارة دبي ونائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، جمعت القمة عقولًا عربية وأجنبية مؤثرة في المشهد المعرفي العربي والعالمي على حد سواء من هيئات دولية وإقليمية، مسؤولي دولة سابقين، علماء وباحثين من تخصصات عدة بالإضافة إلى إعلاميين، كتاب وأصحاب تأثير ذوي علاقة بمجالات المعرفة الإنسانية.

وقد كان لنا حضور في فعاليات القمة ضمن وفد شبابي لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، شباب طموح يبحث لنفسه ولأمته عن مستقبل مشرق لعالم عربي يعيش أحلك أيامه. لقد وجد هذا الشباب لنفسه مشكاة مضيئة، قدوة ناجحة كتلك التي يقرأ عنها في سير الأعلام، إنه الدكتور عصام حجي العالم المصري في وكالة الفضاء الدولية ناسا بالولايات المتحدة الأمريكية والذي صنفته الجامعة العربية ومجلة تايمز سنتبيتسبرج الأمريكية كواحد من أهم الشخصيات الفكرية في مصر والعالم العربي وهو في التاسعة والعشرين من عمره، واعتبرته الهافينغتون بوست عربي في مقال لها قبل أيام أحد عشرة عقول مصرية ساهمت في تطور البشرية.

على هامش القمة وفي تواضع العلماء منحنا الدكتور عصام حجي من وقته في جلسة طيبة دامت لأكثر من ساعة مع ثلاثة زملاء آخرين من الجزائر، سوريا والأردن، استمتعنا فيها بقصة نجاح عالمنا التي نقدمها اليوم للقراء في مقال جوال يتوقف عند أبرز محطاتها بالإضافة إلى مواضيع أخرى مهمة ومواقف طريفة حدثنا عنها الدكتور لننهي مقالنا بنصائح ثمينة تُعبر عن رؤيته الوجودية، يقدمها الدكتور عصام لكل شاب يسعى في مهمة الإصلاح على الأرض.

جلال خشيب قابل د. عصام حجي في دبي في إطار "قمة المعرفة"

في البدء كانت الهمة

لم يكن الدكتور حجي يتوقع أبدًا أنه سيأتي يوم يكون فيه عضوًا فاعلًا في طاقم وكالة الفضاء الأمريكية الشهيرة (ناسا) ولا كان حلمه يتجه لذلك، وبالرغم من الظروف السيئة لبلده مصر إلا أن ذلك لم يمنعه من مواصلة شغفه وولعه الشديد بعلوم الفضاء والفلك، لقد كان الرجل مقتنعًا أنه لن يكون له مكان شغل في بلده بشهادته الجامعية التي سيتخرج بها – لانتشار ظاهرة المحسوبية – فمن المرجح أنه لن يعمل في وظيفة تناسب مؤهله العلمي كما يحدث عادة في بلداننا؛ لذا قرر أن يتعلم الشيء الذي يحب وفقط وأقنع أهله بذلك بغض النظر عما يمكن أن توصله إليه شهادته من منصب عمل في المجتمع.

إلا أن إخلاصه لما يُحب رغم كل ذلك أوصله إلى "ناسا" حلم كل شاب مولع باكتشاف عظمة الكون، دخل الدكتور عصام الناسا كمساعد باحث ثم باحث ثم باحث متميز ثم باحث رئيسي ثم رئيس مشروع للفضاء ثم ساهم في ست مركبات فضاء وبعضها لا تزال طور الإنجاز، سألنا الدكتور كيف حصل ذلك فكانت له فلسفة أخرى في التعاطي مع مثل هذا السؤال الذي سيطرحه حتمًا أي شاب عربي طموح يسعى للمجد، إن هذا السؤال – يقول الدكتور عصام – "ليس بالسؤال الذي يدور في ذهني الآن فلطالما كنتُ أتصور أن هذا الحلم سيتوقف يومًا ما، لما ذهبتُ لناسا كنتُ أتصور أني سأمكث هناك شهرين بعدما ذهبت لفرنسا في دورة لمدة ثلاث أشهر أين حضرتُ الماجستير والدكتوراة وعينتُ أستاذًا مساعدًا بالجامعة ثم أستاذًا محاضرًا، ثم مُنحتُ من الجامعة دورة تدريبية في الناسا لمدة 15 يومًا فقط فإذا بي أمكثُ 14 سنة كاملة هناك في ناسا، ما أريد أن أوصله للشباب أن ليس هناك وصفة نجاح مرسومة المعالم ولكن الأمر الأهم أن يبقى الإنسان في جهد دائم ومحاولة مستمرة سعيًا وراء أحلامه".

قصة مأساوية عاشها الدكتور

بعد إنهائه للدراسة بجامعة القاهرة، حصل الشاب عصام حجي على منحة من الحكومة الفرنسية للدراسة بفرنسا بجامعة باريس 6 سنة 1997، لذا اضطر ليقدم تأجيلاً للخدمة الوطنية لمدة سنة حتى يستفيد من المحنة هناك ثم يرجع لآداء الخدمة الوطنية لاحقًا، فتم رفض الطلب، لذا توجه بعدها للكشف الطبي في المقر المخصص للمجندين، وبما أن للدكتور تأتأةً في الكلام؛ فقد قام مسبقا بكتابة بياناته كلها على ورقة لتلافي أي اضطراب في الحديث قد يزيد الطين بله، فصب الضابط المسؤول جام غضبه عليه "ألا تحسنُ الحديث، ماهذا الذي كتبت، علمُ فلكٍ وفضاء، هل تمشي على السحاب؟" ليتم تحويله إلى لجنة نفسية عُليا ويكشف عنه عميد يطنب في سخريته أيضًا "هل تُكلم النجوم وتمشي على السحاب؟" ثم وضع سماعة الكشف على صدره وطلب منه قراءة الفاتحة حتى يعتبر به زملاؤه الذين يتظاهرون بالجنون ليتجنبوا الخدمة الوطنية، خرج الدكتور من هناك بشهادة طبية تعتبره متخلف عقليًا وكانت الحادثة سببًا في ضياع المنحة ليبتدئ عالمُنا مسيرته مرة أخرى من الصفر.

لماذا يهتم الإنسان بدراسة عالم الفضاء الخارجي وهو غير قادر على معالجة مشاكل الأرض؟ وكيف سيهتم عالمنا العربي بعلوم الفضاء وهو الغارق إلى الأذنين في مشاكل الأرض؟

دراسة الفضاء تهتم أصلاً بدراسة كوكب الأرض الذي نعيش عليه، مصيره وعلاقته بالكون، هل تسمعون بالديناصورات؟ كائنات أقوى من الإنسان عمرت قديمًا لكنها انقرضت، لماذا؟ لأنها لم تكن لديها القدرة على التعايش مع ظروف وتغيرات المناخ على الأرض، فالأمر الذي يحمي الإنسان ويبقيه سالمًا على الأرض هو مدى فهمه لهذا الكون الذي يعيش فيه، فكيف نفهم ظواهر طبيعية كالتصحر والزلازل وما شابه دون هذا العلم؟ كيف نكتشف الأرض وثرواتها؟ إن الناس الذين يقولون بمثل هذا الكلام لا يفقهون شيئًا في هذه العلوم، ويشغلون العالم في قضايا أقل أهمية على أنها محور الكون كالحرب على الإرهاب وما شابه، فمَثلُ هذا الادعاء هو أكبر دعم يمكن أن يُقدم للإرهاب، فالذي يريد أن يحارب الإرهاب حرَي به أولاً أن يمنح الناس الرغبة في الحياة، خاصة في مجتمعات صارت تنتظر الموت من شدة القهر الذي تعيشه يوميًا لسبب وأسباب، فالرغبة في الحياة لن تتوفر إذا لم يتوفر العلم الذي يجلب الابتكار ويُحسن ظروف الإنسان.

لذا يؤكد حجي أن علم الفضاء علم أساسي وهو الذي يقف وراء تطور العلوم كالجبر والهندسة والفيزياء وقد كان العرب والمسلمون رواده يومًا ما، أناروا بها العالم أجمع فليس من المنصف أن يصيروا آخر الأقوام فيها اليوم بعدما اكتشف أجدادهم قوانينها الأولى، فهذا العلم هو الذي طور الصناعات والتكنولوجيات الجديدة.

لماذا لا نسمع بالموهوب العربي إلا بعدما يحقق نجاحًا في الخارج؟

يرى الدكتور حجي أن لذلك أسباب عدة أهمها عدم وجود منظومة ترعى الموهوبين في عالمنا العربي وأن السائد هو الإهمال، فأغلب الدول تستحضر علماءً لها من الخارج لتفتخر بهم أمام الملأ وتحقق مكاسب سياسية ما، لا لتستفيد من علمهم في نهضة الأوطان، فالغرب يزخر بعلماء عرب ومسلمين مهملون في أوطانهم، يوجد على سبيل المثال عالمين اثنين حاصلين على جائزة نوبل من أصول جزائرية أحدهما اسمه كوهين تانوتجي فرنسي الجنسية مولود في الجزائر ومتحصل على نوبل في الفيزياء بجامعة باريس6، ولا يسمع به الجزائريون للأسف الشديد، هناك أمثلة كثيرة عن علماء ذوي أصول عربية حاصلين على جوائز عالمية مرموقة لكن مهملون في أوطانهم الأصلية، للأسف الشديد تستغل حكوماتنا صورة هؤلاء لا تكريمًا لهم ولكن لغاية التعتيم على الوضع المزري الذي وصل إليه حال التعليم والعلم عندنا.

لقد تحولت بلداننا بسبب هؤلاء إلى أسواق لا أوطان كما يضيف الدكتور عصام، أسواق رخيصة تستثمر فيه الشركات الأجنبية وتروج فيه لبضاعتها بالسعر الذي تريد مستغلةً ثرواتها، فبدلاً من أن تحول هذه

الثروات إلى قدرات صناعية فهي تصدرها خامًا للغرب، الجزائر أحسن مثال، علماء الجزائر يملأون الجامعات الأوروبية والأمريكية ويستفيد من علمهم الأجانب بدلاً من أن تستثمر فيهم حكومتهم، أما وضع مصر فهو أكثر سوءًا يضيف الدكتور، فإذا كانت نسبة الأمية في الجزائر حوالي 3% فإنها في مصر تصل إلى 50% وهذا بسبب إهمال النظام السياسي للعلم والتعليم، في مقابل ذلك لا نكاد نجد مسؤولاً حكوميًا واحدًا يدرس ابنه في مدرسة حكومية، فجميع أبناء هؤلاء إما يتلقون تعليمهم في مدارس وجامعات خاصة وإما في الخارج أما الجامعات الحكومية فصارت تجمعات لأبناء الفقراء وحسب.

العرب، ناسا، وعلماء الفضاء

يؤكد الدكتور عصام حجي أن نسبة العلماء العرب في الناسا تقل للأسف عن 1%، يأتي في مقدمة العلماء العرب من حيث الجنسية اللبنانيين، المصريين، الجزائريين (بما فيهم المولودين بالخارج من أصول جزائرية)، المغاربة، السوريين، الفلسطينيين، الأردنيين وكذا التوانسة، ويرى أن هناك مشروعات علمية في بعض الدول العربية كالإمارات العربية المتحدة التي تشرع في بناء محطة فضاء متطورة، ويأمل الدكتور عصام أن تقوم مثل هذه الدول بتجنيس العلماء العرب الذين يعملون فيها حتى تتلافى حدوث نزيف للعقول العربية نحو الخارج، فهذا ما هو متبع في أمريكا مثلاً لتحافظ على تلك العقول على أراضيها حتى تضمن تفوقها الدائم.

بالنسبة للجزائر فهي أيضًا تعاني من نفس هذه الظاهرة، مشكلة نزيف العقول نحو الخارج تستنزفها حقًا، لا يرجع السبب إلى نقص الإمكانيات المالية للجزائر إطلاقًا، بل إن هؤلاء لا يجدون الرعاية الملائمة لهم، فضلاً أن هناك مواضيع معينة يمنع الاقتراب منها بتاتًا بغرض البحث والتنقيب كموضوع الطاقة والمياه وما شابه، ويذكر الدكتور عصام أن الجزائر وحدها بين الدول العربية من تملك قمرين صناعيين علميين ناجحين وفاعلين وهو أمر يبعث على التفاؤل، خاصة وأن أغلب الدول العربية لا تملك أقمارًا صناعية علمية مماثلة (باستثناء الجزائر، المغرب، مصر، السعودية، الإمارات)، بل هناك دولة عربية أرسلت قمرين صناعيين علميين فضاعا في الفضاء الخارجي، فضيحة مثيرة للضحك والأسف في نفس الوقت بعدما أنفقت عليها الحكومة 500 مليون جنيه ونحن نتحدث هنا عن مصر، فللأقمار العلمية دور مهم جدًا كما يؤكد الدكتور عصام مثل اكتشاف الموارد الطاقوية والمعدنية في هذه البلدان، ربما نلمح اهتمامًا عربيًا ببناء بنية تحتية في هذه الدول لكن ليس هناك اهتمام بالعلماء والاستثمار في الشباب المبدع الناجح، يبقى ضعيف جدًا.

شاهد أيضا:

رابط المقال: https://www.noonpost.com/10795/